العرب
الجمعة 2020/01/10
السنة 42 العدد 11582

متى تأخذ إيران علما بالتغيير

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

للمرّة الأولى تضطر إيران إلى المواجهة العسكرية المباشرة مع الولايات المتحدة، وإن لم يكن ذلك في أراضيها، بل في العراق الذي تعتبره "الجمهورية الإسلامية" مجرّد "ساحة" على غرار ما هو عليه لبنان.

هل يعني ذلك أن إيران باشرت مغامرة سترتدّ عليها عاجلا أم آجلا بسبب الخلل بالتوازن العسكري بينها وبين أميركا... أم إن كلّ ما في الأمر أن المطلوب إنقاذ ماء الوجه للنظام الذي ادّعى قتل ثمانين أميركيا، بينما الحقيقة أنّه لم يقتل أحدا؟ هناك بالفعل جهل إيراني بما هي الولايات المتحدة حيث يستحيل إخفاء هوية أي عسكري، مهما كانت رتبته، يُقتل في مكان ما من هذا العالم. هذه بديهيات لا يبدو أن إيران على استعداد للاعتراف بها، معتقدة أنّ هناك من سيصدّق أي دعاية تطلقها وسائل الإعلام التابعة لها عن الخسائر البشرية التي تدّعي بأنها ألحقتها بالأميركيين!

أخذ بوتين علما بالتغيير الكبير الذي يحصل في إيران نتيجة تصفية قاسم سليماني. متى تأخذ إيران نفسها علما بهذا التغيير الذي سيعني تقليص حجم نفوذها في لبنان وسوريا والعراق في المدى القريب؟

في حال بقيت الأمور في حدود الردّ الإيراني الفاشل في العراق، ستضطر إيران إلى التفكير في كيفية الخروج من المأزق الذي وضعت نفسها فيه بعيدا عن التصعيد والكلام الكبير الذي لا معنى له. فالشعارات تبقى شعارات، فيما المطلوب في الواقع التعاطي مع مشكلة كبيرة اسمها العقوبات الأميركية. كشفت العقوبات هشاشة نظام اعتاد على الابتزاز وعلى خفة أميركية في التعاطي معه، منذ تشرين الثاني – نوفمبر 1979، أي منذ احتجز 52 دبلوماسيا أميركيا كانوا يعملون في سفارة بلدهم في طهران لمدّة 444 يوما. في السنة 2020، حددت إدارة دونالد ترامب 52 هدفا داخل الأراضي الإيرانية تؤكد أنها مستعدة لقصفها في حال التعرّض لعسكريين أو مواطنين أميركيين، أو أقدمت إيران على عمل أرعن آخر.

جرت العادة في الماضي أن تلجأ إيران إلى استخدام أداة من أدواتها أو التلطي خلفها في كلّ مرة ترتكب عملا إرهابيا. فهي استخدمت الحوثيين لإطلاق صواريخ في اتجاه الأراضي السعودية، ثم استخدمت الحوثيين مجدّدا عندما أعلنوا مسؤوليتهم عن صواريخ أطلقت من الأراضي الإيرانية في اتجاه منشآت لـ"أرامكو" في المملكة في أيلول – سبتمبر الماضي.

فهمت إيران الرسالة الأميركية التي تنطوي عليها عملية تصفية قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" وانعكاسات ذلك على غير صعيد، بما في ذلك الداخل الإيراني وخلافة "المرشد" علي خامنئي الذي كان سليماني أحد أقرب الناس إليه وإلى عقله وتوجهاته. كان عليها إنقاذ ما تبقّى للنظام من هيبة بنفسها. لجأت إلى قصف قاعدتين فيهما جنود أميركيون، الأولى عين الأسد غرب العراق والثانية قرب أربيل في كردستان العراق.

فهمت إيران خصوصا أنّ هناك إدارة على استعداد للتعاطي معها بطريقة مختلفة، أي باللغة التي تفهمها، وهي لغة الاغتيالات. لا داعي إلى تعداد عدد الذين تخلصت منهم إيران بطريقة أو بأخرى مستخدمة في كلّ الأحيان أدواتها في المنطقة. تكفي لائحة اللبنانيين الذين تعرضوا للتصفية لمجرّد أنّهم وقفوا عقبة على طريق وضع يدها على البلد. على رأس هؤلاء يأتي رفيق الحريري الذي يعاني لبنان كل يوم أكثر بسبب غيابه.

استطاعت أميركا التخلّص من أسامة بن لادن في عهد باراك أوباما. كان بن لادن زعيم تنظيم "القاعدة" الإرهابي الذي يقف وراء غزوتيْ نيويورك وواشنطن في العام 2001. كانت تصفية بن لادن في باكستان العمل المفيد الوحيد الذي قام به أوباما على صعيد السياسة الخارجية في عهده الذي استمرّ ثماني سنوات. بعد ذلك تخلص دونالد ترامب من أبوبكر البغدادي زعيم "داعش".

لكنّ كلّ ذلك لا يعني شيئا مقارنة مع تصفية قاسم سليماني الذي كان إلى جانبه أحد رجاله العراقيين أبومهدي المهندس نائب رئيس الميليشيات المذهبية المنضوية تحت ما يسمّى "الحشد الشعبي".

يُفترض أن تكون إيران استوعبت التغيير الأميركي. ربّما ستكون هناك حاجة إلى مواجهة جديدة كي يكون هذا الاستيعاب للتغيير نهائيا، ذلك أنّ الذي حصل يوم الثاني من كانون الثاني – يناير الجاري بُعَيْدَ وصول قاسم سليماني إلى مطار بغداد وخروجه منه يظلّ حدثا كبيرا جدا. فما سقط لم يكن مجرّد قائد عسكري إيراني. ما سقط كان رمز المشروع التوسّعي الإيراني الذي كانت له انطلاقة جديدة من العراق وفّرتها إدارة جورج بوش الابن لـ"الجمهورية الإسلامية" التي أوصلت قادة الميليشيات التابعة لها إلى بغداد على دبّابة أميركية في العام 2003.

من الصعب قبول إيران بالعيش في ظلّ العقوبات الأميركية من جهة، وفي ظل إدارة تمتلك رغبة في التعاطي معها يوما عن طريق الردّ عليها داخل الأراضي الإيرانية من جهة أخرى. من هذا المنطلق يصحّ طرح سؤال عن إمكان تعايش "الجمهورية الإسلامية"، في حال لم تتغيّر، مع إدارة دونالد ترامب، خصوصا أنّ هناك في طهران من لا يزال يعتقد أن الفرصة ما زالت متاحة لإسقاط ترامب في انتخابات تشرين الثاني – نوفمبر 2020، وأن الديمقراطيين سيعودون إلى البيت الأبيض. لعلّ أفضل من عبّر عن هذه التمنيات حسن نصرالله الأمين العام لـ"حزب الله" في لبنان الذي تحدّث في خطاب تأبين قاسم سليماني وأبومهدي المهندس عن إخراج الجنود الأميركيين من المنطقة وعن "نعوش" لعسكريين أميركيين تُرسل إلى واشنطن.

يعبّر كلام نصرالله عن وجهة نظر مجموعة في طهران ما زالت تعتقد أنّه لم يتغيّر شيء بعد تخلّص إدارة ترامب من قاسم سليماني. الواقع أنّه تغيّر الكثير. لعلّ أوّل ما تغيّر أن الإدارة الأميركية الحالية تعرف إيران جيّدا. أهمّ ما تعرفه هذه الإدارة أن قاسم سليماني هو من مفاتيح النظام وأن تصفيته يمكن أن تشرّع الأبواب أمام تغيير كبير في طهران. ستثبت الأيّام أن هذا التغيير سيحصل، كما ستثبت أنّ الوضع في العراق وفي سوريا وحتّى في لبنان المتجّه إلى كارثة كبيرة لا يمكن أن يبقى على حاله.

ما يدلّ على ذلك مسارعة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى زيارة دمشق بعد خمسة أيام على اغتيال قاسم سليماني، والتصرف بطريقة تؤكد أن الكلمة الأولى والأخيرة في سوريا هي لروسيا وليست لإيران. كان لافتا أنّ بوتين أجرى على هامش زيارته لدمشق محادثات مع رئيس النظام بشّار الأسد. بدا واضحا أنّ أهمّ ما في الزيارة، إضافة إلى توقيتها طبعا، الأجواء التي رافقتها، بما في ذلك السيطرة العسكرية والأمنية الروسية على الأرض والجوّ في الوقت ذاته.

أخذ بوتين علما بالتغيير الكبير الذي يحصل في إيران نتيجة تصفية قاسم سليماني. متى تأخذ إيران نفسها علما بهذا التغيير الذي سيعني تقليص حجم نفوذها في لبنان وسوريا والعراق في المدى القريب؟

أجنبي حرام وأجنبي حلال

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

إن الاحتلال، من أي نوع ومن قبل أي قوة خارجية، في كل تواريخ الأمم والشعوب، كان، وما زال وسيبقى، مرفوضا، ومقاومتُه بكل الوسائل حقّ مشروع لا ريب فيه.

فأعزّ ثلاثة أشياء لدى الشعوب، متحضرة كانت أو بدائية، وأكثرُها قداسة واستحقاقا للتضحية من أجلها بالروح والمال والبنين، هي الكرامة الوطنية والسيادة والاستقلال.

إلا في العراق، وإلا في أيامنا هذه. فقد تغير المزاج الوطني تغيرا دراماتيكيا عجيبا غيرَ طبيعي وغير اعتيادي، من النقيض إلى النقيض.

فبعد أن كانت الملايين تهتف ضد الأجنبي وتبالغ في كراهته وتتظاهر ضد جنوده وتحرق أعلامه وتدوس على صور قادته وزعمائه، صارت تهتف بحياته في برلمانها، وترفع صور قادته في شوارعها وجوامعها وكنائسها، وتفاخر باحتلاله، وتقاتل من يدعو إلى طرده، وتقدم له آيات الشكر على تدخله في شؤونها الداخلية، علنا وبحماس منقطع النظير.

فدون لف أو دوران نعترف بأن في العراق اليوم أكثر من أجنبي واحد يصول ويجول ويُنفق أكوام الريالات والدراهم والدولارات والدنانير على عراقيين جاهزين لبيع أنفسهم وأهلهم وأوطانهم، متطوعين لخدمته، حتى لو أمرهم بأن يُخربوا له الوطن، ويقتلوا أهله. وها هم، دون خوف ولا حياء، دمروا أجمل مدنه وقراه، لإرضائه.

ومن بين الأجانب الكثيرين المستبيحين أرضه وسماءه علينا أن نعترف بأن هناك أجنبيّين اثنين، أميركا وإيران، ممسكيْن حقيقييْن بعجلات قيادته العليا والدنيا، معا. وهما متفاهمان أحيانا، ومتعاركان أحيانا أخرى، وتدور في فلكهما الأحزاب والحسينيات والمساجد والكنائس والصحف والفضائيات التي تعد بالعشرات.

ومن يعترض على ذلك فإن مكانه الطبيعي إما في مستشفى المجانين، أو في إحدى الوزارات الغنية بالعقود والمقاولات والعمولات، أو أحد مقرات قيادة إحدى الميليشيات، أو البنك المركزي، أو أي مصرف خاص آخر، أو مول تجاري شامخ يقدر ثمنه بالمئات من الملايين. والعراقيون منقسمون بين صديق متفان ومتعصب لهذا، وعدو متشدد في عداوته لذاك وومتحمس لقتاله وقتال وكلائه الكبار قبل الصغار.

ومادام على العراقيين، بحكم الضرورة والواقع الموجود، أن يختاروا الاصطفاف مع أحدَ هذين الأجنبييْن، أميركا وإيران، فتعالوا نتفاهم ونتحاسب. ماذا تأخذ إيران من العراق وماذا تُعطيه، وماذا يأتي من الأميركان إليه وماذا لا يأتي؟

ونبدأ بالجارة إيران. فإنها الأقوى في العراق، ولها الأقوى والأكثر عددا والأحسن تمويلا وتجهيزا وتدريبا وتسليحا من أحزاب وميليشيات وجواسيس. وكلاؤها مزروعون تحت جلد كل عراقي، لا فرق بين مسلم ومسيحي، شيعي وسني، عربي وكردي، يصولون ويجولون في مفاصله وفي عروقه، ويُقننون له الصغيرة والكبيرة من شؤونه، بدءا بسلاح جيشه وأثاث وزاراته واختيار وزرائه ومدرائه وسفرائه، وانتهاء بتسعير البطاطا والطماطم والخيار. فهم وحدهم يحتكرون الإشراف والإدارة والتصرف بوزارات الداخلية والدفاع والمالية والزراعة والصناعة والتجارة والاتصالات، والبنك المركزي، وهيئة الانتخابات، وهيئة النزاهة، والبطاقة التموينية، ومحلات بيع الخمور والمخدرات، ويعلّمون الصغار والكبار فنونَ اللطم والسير على الأقدام مئات الكيلومترات للزيارة، وتقبيل صور الإمام المؤسس آية الله العظمى الخميني ووريثه الولي الفقيه علي خامنئي والقتيل قاسم سليماني.

بضائع الجارة العزيزة، وحدها، المسموح بدخولها دون أي رقابة، لا صحية ولا تسعيرية ولا هم يحزنون. ويدخل رجالها ونساؤها دون جوازات سفر، ويخرجون دون مساءلة ولا مراقبة وفي حقائبهم سجلات ومعلومات مفصلة عن أصل كل عراقي وفصله، ومعهم صناديقُ مقفلة حشواتُها سبائكُ ذهب البنك المركزي، وأكوامُ الدولارات المختلسة من خزينة الدولة العراقية، وذلك لدعم الشقيقة الكبرى وإعانتها في محنتها التي رماها فيها ترامب وحلفاؤه في المنطقة، والجماهير المنتفضة من العراقيين التي تجرأت وهتفت "إيران بره بره" ناكرة للجميل.

باختصار. لا يأتي من الجارة إيران في المدن والقرى العراقية، في الوسط والجنوب، غير الفقر والجوع والمرض والمخدرات، وغير انقطاع الماء والكهرباء والدواء والغذاء، وفساد الميليشيات العراقية الإيرانية صاحبة الحق الوحيدة في النهب والسلب والضرب بالهراوات والسكاكين وقنابل الغاز القاتلة التي تطلق على الرؤوس والأفئدة.

بين الأجانب الكثيرين المستبيحين أرض العراق وسماءه علينا أن نعترف بأن هناك أجنبيّين، أميركا وإيران، ممسكين وحيدين بعجلات قيادته العليا والدنيا

ومن يعترض على ذلك، أو من يخرج مطالبا بحريته وكرامته ولقمة عيش عياله، عميلٌ استكباري أميركي صهيوني بعثي صدامي داعشي، حلالٌ ذبحُه أو اختطافه أو قتله بالرصاص الحي.

والخلاصة أن المواطن العراقي في ظل احتلال الشقيقة الكبرى قد شبع مآتم وجنازات ومناحات وهتافات بحياة الولي الفقيه، وبالصوت العالي، حتى وهو عاطل عن العمل وجائع ومريض، وغير آمن، وصابر على ظلم ذوي القربى..

أما أميركا، ورغم كل ما ارتكبه جنودها أيام الغزو وبعده، وحتى خروجهم عام 2011، فيذكر لها أنها كانت السبب الأول والأخير في تسليط كوابيس الإيرانيين ووكلائهم على العراقيين.

ولا أحد ينسى أيام مجلس الحكم، ومراسيل المرجعية إلى بول بريمر، ومراسيل بريمر إلى المرجعية، ولا ذكريات كتابة الدستور وتسليم الجمل بما حمل لحزب الدعوة والمجلس الأعلى ومنظمة بدر والتيار الصدري وحزب الفضيلة، وبرعاية قاسم سليماني.

فأميركا اليوم غير أميركا أمس. نعم. أميركا ترامب غير أميركا جورج بوش الابن، ولا أميركا باراك أوباما. لقد تعلمت من العراق والعراقيين، واكتشفت ولو متأخرا، أن إيران لا تصلح حليفة ولا عدوة أيضا. ولأن العراق بالنسبة لها درة تاجها الشرق أوسطي والعالمي، وقلعتها التي أنفقت الكثير من مالها ودماء رجالها على امتلاكها وتعزيز وجودها فيها، فقد وجدت أن محتلين أجنبييْن قويين يصعب عيشهما معا على أرض واحدة.

وها هي، من أول سنوات رئاسة ترامب، منهمكة في تبغيض العراقيين من إيران، وفي تقليع أظافر عدوتها الجديدة وأسنانها في العراق، ثم في المنطقة.

ومن أجل ذلك، فإنها، لو تحقق حلمها الصعب، وتمكنت من طرد إيران، وتخلصت من وكلائها المختلسين المتخلفين الفاشلين، لن تكون كما كانت سيرتها الأولى عندما غزا جيشها العراق، وظن أنه قادر على حكم العراقيين، وتسيير وزاراتهم ومؤسساتهم وجامعاتهم، بالقوة والجبروت، ولن تستعين بوكلاء عراقيين مختلسين منافقين مزورين متخلفين وفاشلين، وستدرك أن عراق 2003 لم يعد موجودا، وأن العراقيين اليوم غير آبائهم ولا أجدادهم، وأن من الصعب، بل المستحيل خداعهم وغشهم، ونهب خيراتهم بالمجان، وحكمهم بقوة السلاح.

وأغلب الظن، أيضا، أنها لو تحرر العراق من غريمها الإيراني، لفعلت مع العراق، هذه المرة، ما فعلته مع اليابان وفيتنام وألمانيا، أو ما تفعله مع السعودية والإمارات والبحرين والكويت وقطر وعمان. بعبارة أوضح سيكون سلاحها الأمضى من كل سلاح هو التجارة والاستثمار وبيع الأقمار الصناعية والمواصلات وشبكات الاتصال والمصارف والقروض.

ولأنها تعلم بأن النفط العراقي مُختلس حاليا وتذهب عوائده إلى ما وراء الحدود، فسوف تكتفي بسرقته، ولكن شراء بربع القيمة، وليس نقدا بل معلبات وأدوية ومسكنات ومجمعات سكنية وتجارية وناطحات سحاب.

وسيفاجأ العراقيون، كما حدث في دول الخليج العربية، بشركات أميركا وأوروبا والصين واليابان والروس تتسابق على مقاولات ومناقصات ومشاريع الإعمار والبناء والاستثمار. وكما حدث في بلدان عديدة في المنطقة والعالم فستمتلئ خزانة الدولة بالأموال، وستضطر الحكومة إلى بناء إقراضها لمن يستحقها من الشطار العراقيين.

وفي أعوام قليلة سترتفع العمارات على جانبي دجلة والفرات، وسيخلو الوطن تماما، من جيوش المسلحين ومن المعممين، ويمتلئ بالمقاولين والمهندسين والمستثمرين، وستختفي الرايات السود وأقمشة الحداد وتحل محلها إعلانات حفلات الغناء والموسيقى والمسرحيات ولوحات الرسامين وصور عارضات الأزياء، وآخر موديلات السيارات والملابس وعيادات الأطباء وشركات الأدوية وشركات السياحة والاستجمام.

أليس هذا ما هو حاصل في دول عديدة لم تجد ما ينتهك سيادتها ويهين كرامتها في قبول صداقة أميركا المقننة والمحددة كاليابان وألمانيا واليونان وتركيا وكوريا الجنوبية وإندونيسيا والأرجنتين وقطر والسعودية والكويت؟ وهل نحن أكثر وطنية وكرامة من هؤلاء أيها العراقيون؟